شيخ المؤرخين وقدوة الباحثين
أبو القاسم سعد الله في ذمة الله

رئيس التحرير الدكتور الحاج عيفه

إن للموت هيبة وجلالا، ولفقدان الأحبة صدمة لا تطيق النفوس لها احتمالا، فكيف إذا كان الفقيد في مجال الصالحات والمكرمات قدوة ومثالا؟ ليس من غرضنا في ذكر هذا الحدث أن نجدد المصاب فنثير بذلك كوامن الحزن، ولكننا إذ نؤبن شيخنا المرحوم إن شاء الله العلامة أبو القاسم فإننا نريد بذلك أن نستجلي - معاشر الأحياء- معاني الإخلاص والتقى، ومثال التضحية والوفاء، ونبراس الأجيال من خلال حياته العامرة، بثمرات الجد والمثابرة، ونتائج الصبر والثبات، في صنع النفوس العظيمة، وتكوين الهمم العالية.

نعم لقد فاجأنا القدر بوفاة أعز الأبناء وأبرهم بوطنهم حبا وإخلاصا، وتضحية وجهادا، فكان بحق ممن قال الله عز وجل فيهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: 146، فمن منا في الجزائر والوطن العربي لا يعرف من هو شيخ المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله في كفاحه وجهاده وحبه للخير والصلاح، ودماثة أخلاقه وتواضعه وتقاه وخشيته الله تعالى؟ في إيمان لا يشوبه رياء، وعزيمة لا يفل من حدها الملل والإعياء، وإقدام لا يعتريه تردد ولا خوف، وهو في كل ذلك مدفوع بعقيدة لا تتزعزع، ولا مطمح له بذلك في شيء من متاع الدنيا.

لم يطمح إلى منصب أو جاه،ولا امتدت عينه إلى متاع من الدنيا يكون له جزاء على ما قدمه من تضحيات،فبتلكم الشحنة الدافعة من الصبر،وبذلكم الدرع الواقي من الرضا واليقين نتقي الجهل والتخلف، ذلكم لأن الشيخ رحمه الله عاش حياته رافعا لشأن الجامعة حتى آخر رمق من حياته،لم تقعد به شيخوخته ولم يثنه عجزه عن التردد إليها، نرجو الله تعالى أن يجعله من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فما منا من أحد إلا وهو يرجو له المغفرة والرضوان، لما كان يتمتع به من دماثة الأخلاق، ولطافة المعشر في أغلب حالاته.

أيها الشيخ يشهد لك القاصي والداني بالخير والمكرمات، إذ عشت حياتك رفيق العلم، وكنت أنى حللت عظيم الشأن رفيع الدرجات. لقد بارك الله في عمرك الذي أفنيته في تربية الأجيال وتكوين الرجال، وإنعاش تراثنا وتاريخنا تأليفا وتحقيقا وترجمة، بما ألهمك الله من العلوم ووهبك من أنواره اللدنية، فأسلست لك الأحكام قيادها، وكشفت لك أسرارها، فأفتيت فيها بالقول الفصل لا يستعصي عن المبتدي، ولايستغني عنه المنتهي.

فماذا نزيد نحن إلى حصيلة عمرك الزاخر بالمآثر والمحامد التي سلكتك في عداد الخالدين؟

وما المزيد الذي يطلبه من اتخذ نحو العلياء مرقاة؟

وهل يرجو من وراء ذلك غير ما رجاه الشاعر من رسول الله عندما أنشد بين يديه:-

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولئن كانت مثل هذه الذكريات المجيدة تثير أشجاننا، فتغذي في ضمائرنا روح النخوة والاعتزاز بقيمنا ورموزنا وتقوى في نفوسنا، دوافع الغيرة والحماس على مقدرات مجتمعنا ومقومات منهجه المتميز بأصالته الربانية وتربيته المحمدية.

وإذا فاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسي

ولم يكن عزاؤنا في شيخنا إلا أن يكون قبره- بإذن الله- روضة من رياض الجنة، وأنه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وقد ورد في الأثر أن ألسنة الخلق أقلام الباري، فحسبه شرفا وخلودا أن يشهد له القاصي والداني بالفضل العميم والخير الجزيل، والعلم الأصيل، والذكر الجميل، وما أبلغ قول أبي تمام في أمثاله من العظماء:

ألا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

فتى كلماافاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فمن منكم أيها الجيل من الطلبة ورجال العلم لم يقتبس من نور علمه، ولم يتعلم السرى على كواكبه وبدوره؟

ولئن فني جثمانه الطاهر في ذرات التراب، فإن روحه الخالدة ترف علينا ما بقينا أوفياء له.

إن الوفاء للشيخ لا يتحقق بتنميق الأحاديث وتنسيق الخطب والكلمات، أو برفع الشعارات وتعليق اللافتات للإشادة بأمجاده لأن حبه في سويداء قلوبنا وذكراه العطرة ملء جوانحنا. بل

لا يكون وفاؤنا له إلا بالمصابرة والمرابطة في اقتفاء آثارجهاده العلمي،ومتابعة المسيرة إلى أهدافها السامية وفق ملته واعتقاده.

وفي الأخير سلام عليك يا أبو القاسم في محياك ومماتك،وطوبى لك- بإن الله- في عليين،مع الصديقين والشهداء والصالحين. فإن العين لتدمع،وإن القلب ليخشع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. إنا لله وإنا إليه راجعون ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي الختام أردد مع الشاعر الفحل أبي تمام هذه الأبيات:

سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه وإن لم يكن فيه سحاب ولا قطر
وكيف احتمالي للغيوث صنيعة بإسقائها قبرا وفي لحده البحر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى ويغمر صرف الدهر نائلة الغمر
عليك سلام الله وقفا فإنني رأيت الكريم الحر ليس له عمر

والحمد الله رب العالمين